ثورة فيرموس
372 ـ 375م

محمد الهادي حارش

صعوبات البحث:

تناول موضوع هذه الثورة من الصعوبة بمكان، ذلك أن المصدر الأساسي لهذه الثورة «أميانوس» (1)، اكتفى بتتبع حملة ثيودوز على إفريقيا دون أن يعير أي إهتمام لخلفيات الثورة وأسبابها، إلا عرضاً، أضف إلى ذلك صعوبة تحديد الكثير من المواقع التي أشار لها هذا المؤرخ، وكذا مواضع الشعوب والقبائل التي ساندت فيرموس (2).

الاطار المكاني:

يمكننا القول عموما أن الإطار المكاني، الذي شغلته هذه الثورة يمتد من جيجل ولمباز شرقا إلى قرطنة «تنس» والشلف غربا وأوزيا ومسيلة جنوبا.

أسباب الثورة:

قبل تتبع أحداث هذه الثورة، وفق رواية أميانوس، نشير إلى أن هذا المؤرخ ومعاصريه لم يترددوا في إلقاء مسؤولية هذه الثورة على الكونت «رومانوس»، الذي يتهمونه بالتسبب في جلب هذه المصاعب للإمبراطورية، وفقا لهؤلاء يكون «رومانوس» قد لجأ إلى سياسة التفرقة بين أبناء الملك «نوبل» على أثر وفاته، فساند «زاماك» ضد «فيرموس» فما كان من هذا الأخير إلا أن اغتال «زاماك»، فكان ذلك سبب القطيعة بين «فيرموس» والامبراطورية، على ما يذكر «أميانوس» (3).

قد تكون هذه الرواية حقيقية على ما يذكر «كانيا» (4)، لكن ألا يحق لنا أن

نتساءل ان لم تكن الأوضاع في إفريقيا مواتية للإنتفاضة، وهو ما يؤكده الصراع الديني، الذي قسم إفريقيا إلى معسكرين معاديين: المعسكر الأول من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، والمعسكر الثاني من الدوناتيين المنشقين الذين اعتبروا «أعداء الأمبراطورية».

كون معظم الدوناتيين من الأهالي، أعطى لهذا الصراع أيضاً طابعاً عرقياً بالإضافة إلى طابعه الديني، فكان الإنشقاق بالنسبة لهم الفرصة المنتظرة للوقوف ضد عبودية تحملوها عن إكراه، وكانت تغذي في أعماق نفوسهم الأمل في خلع النير يوماً ما على ما يرى صاحب إفريقيا المسيحية [5]، فتحالفوا مع فيرموس لهذا الغرض، كما تحالف فيرموس معهم، ففي الوقت الذي يقدمون له جيشا معتبرا كان في أشد الحاجة إليه، وكذا تجنيدا رائعا للأهالي، كان ضروريا لاستمرار وتدعيم الثورة، قدم لهم هو في شخصه قائدا عسكريا كانوا في أشد الحاجة إليه [6]. وبذلك تجمعت على رأي ونكلر، المطالب الدينية ومطالب الإستقلال، وكذا الثأر الشخصي لإثارة هذا الجزء من إفريقيا [7].

رغم الظروف المواتية للثورة، فإن فيرموس لم يسارع في إعلان الحرب إلا بعد عقد تحالفات مع بعض القبائل الموريطانية، وبعد أن لبس الحلة الارجوانية ووضع التاج على ما يذكر أميانوس [8]، وكان الإستيلاء على قيصرية وحرقها [9] ايذانا ببداية هذه الثورة، ولم يتوقف فيرموس عند هذا الحد، بل استولى على ايكوزيوم (الجزائر) ونهبها [10]، كما حاصر تافزة (تيبازة) دون جدوى، واستولى أتباعه على قرطنة (تنس) وخربوها [11]، وبذلك سيطر على كل المنطقة الشرقية من موريطانيا القيصرية وانتشر الخوف والفزع في صفوف الجيش الروماني الذي يفهم من النصوص المعاصرة انضمام فرق منه إلى صفوف فيرموس [12].

أمام هذه الأوضاع سارع الإمبراطور فلانتيانوس إلى إرسال أحسن قادته إلى إفريقيا، الكونت «ثيودوز»، الذي بادر بعد نزوله بجيجل (سنة 372م) إلى إعلان حالة الطوارىء، فأصدر في هذا الشأن قانونا [13]، سمح بموجبه ـ خلافا للقاعدة ـ لأعضاء، ومكاتب (Officium) مختلف الحكومات المدنية والعسكرية بالدخول في الجيش المحارب. وطالب الموجودون في حالة انتداب مؤقت في فيالق الحدود (Numerus) أو في أية فرقة الإلتحاق بفرقهم، إن كانوا قادرين

على حمل السلاح [14]. كما منع منعا باتا إنتداب ولو جندي واحد من خدمته العسكرية لإدارة الحاكم، وهذا سواء في المزاق أو إقليم طرابلس. وهي الأقاليم الواقعة إلى الشرق من المناطق الثائرة. وهذا بعد أن استلم من الكونت «رومانوس» قيادة العمليات وقبل التوجه إلى سطيفيس (سطيف) التي اتخذ منها قاعدة عملياته خلال كل الحملة [15].

يخبرنا أميانوس [16] أن فيرموس بعد أن علم بقدوم ثيودوز، عمل على ربح الوقت، بأن طلب منه السلم، وهو ما لم يرفضه ثيودوز إعتمادا دائما على رواية أميانوس لكن هذا السلم لم يتم، وانتقل ثيودوز إلى بانشاريا [17] (Panchariana) لتفقد فرق إفريقيا، قبل أن يعود إلى سطيف، من حيث يبدأ الحملة بالتوجه نحو توبوسكتو [18] (Tupusuctu) على وادي الساحل (الصومام)، وفي هذه المنطقة يصطدم بتندنس (Tyndens) [19] ومسيسنة (Masinissenses) [20] الذين كانوا تحت قيادة شقيقي فيرموس ما قزازال (Maczezel) | وديوس (Dius) اللذين انهزما، واحتلت ممتلكاتهما، وكذا ممتلكات «ساماك» (Sammac) وبيسترا [21] (Le fundus de Petra) وحصن لمفوكتس [22] (Oppidum Lamfoctense) الذي اتخذ منه ثيودوز مخزنا للتموين.

في هذه المنطقة تصدى ثيودوز لهجوم آخر قاده شقيق فيرموس «ماقزازال»، وكانت هزيمة هذا الأخير، على ما يذكر أميانوس [23]، وراء إرسال فيرموس لوفد يطلب السلم، قبل أن يقدم هو شخصيا لذلك، لكن اشتراط ثيودوز إطلاق سراح كل المعتقلين وإعادة مدينة «ايكوزيوم» وكذا تقديم بعض أفراد عائلته كرهائن حال دون تحقيق ذلك [24].

انتقل شيودوز إلى «تافزة» (تيبازة) ومنها إلى قيصرية (شرشال) التي تحولت تقريبا إلى رماد، فترك بها الفرقتين الأولى والثانية لرفع الحطام وحماية المنطقة من هجومات أخرى متوقعة [25].

في هذه الأثناء علم «ثيودوز» أن فيرموس بصدد الأعداد لهجوم جديد، وعلى أثر ذلك أسرع ثيودوز إلى زوكابار (Zuccabar) «مليـــانـــة»، حيث وجد فيلقين تابعين لجيش إفريقيا، كانوا قد انحازوا إلى فيرموس [26]، فأعدم من أعدم،

وعرض الباقي للعذاب، وحتى يحرم فيرموس من إمكانيات تجديد الحرب، استولى على (Funduc calonitia) حيث تحصن المور، ومنها تقدم إلى قلعة تنجيتانوم [27] (Castellum tingitanum) حيث هاجم المازيس (Mazices) في جبال انكورايوس [28] (Ancorarius)، دخل بعدها بلاد (Musories) الذين أعلنوا «أعداء الإمبراطورية» ووصل حتى بلدة أدنس [29] (Addense)، لكن هنا وجد نفسه، كما يذكر أميانوس وسط العديد من القبائل، المستعدة لكل تهور، ذات الكره الواضح «للإسم الروماني» بفضل العمل الذي قامت به كيريا (Cyria) شقيقة فيرموس [30]. فاضطر ثيودوز إلى التراجع نحو تيبازا [31] (Tipata) في فيفري 474، بعد فترة قضاها في أراضي مازوكانوس [32] (Fundus Mazucanus)

قضى ثيودوز فترة طويلة في «تيباتا» على ما يذكر أميانوس، محاولا استغلال هذه الفترة بالدسائس، إذ دس أعوانه في صفوف حلفاء فيرموس محاولين التأثير عليهم بالوعد أحيانا والوعيد أخرى، وهي الأساليب التي يتقنها الرومان [33]، وهو ما جعل بعض القبائل تتخلى عن فيرموس [34] لكن مع ذلك واصل الثورة.

لجأ فيرموس إلى جبال كابراريبانس [35] (Caprarienses) وسط منطقة صخرية صعبة المسالك، بعد أن احتل الرومان معسكره وضربوا المنطقة، وقد حاول ثيودوز اللحاق به، لكن فيرموس تراجع تاركا ثيودوز يتقدم وسط بلاد وعرة وقبائل معادية للإسم الروماني، مثل قبيلة آيت عبان [36]، على ما يذكر أميانوس [37]، وهو ما اضطر ثيودوز إلى التراجع والإنسحاب بعد أن فشل في زحزحة هذه القبائل من مواقعها [38].

وصل ثيودوز في تراجعه إلى بلدة كونتسيس [39] (Civitas Coniensis) حيث حرر بعض الاسرى الرومان، في هذه الأثناء لجأ فيرموس وشقيقه «مازوكا» إلى قبيلة ايزافلانس [40] (Isaflenses) حيث دارت معركة حامية بينه وبين ثيودوز،ضمن فيها التفوق العددي،النصر للرومان، ولم ينج فيرموس من المعركة،على ما يذكر أميانوس، إلا بفضل سرعة جواده [41]، بينما وقع شقيقه أسيرا بعد جروح، وتعرضت المنطقة كلها للنهب [42]، من هناك واصل ثيودوز السير حتى اصطدم بالجبالة (Jubaleni)، الذين صدوه [43]، وتراجع

نحو حصن أوديانس [44] (Castellum audiense)، حيث تلقى خضوع قبيلة يزالنس [45] (Jasalenses) التي تعهدت بتقديم المساعدات العسكرية والمؤونة للرومان [46].

هذه الإنتصارات لم تضع حدا لثورة فيرموس، الذي كان يكفي ظهوره في منطقة ما، لتشتعل الثورة من جديد على ما يذكر أميانوس دائما. وهو ما اضطر ثيودوز إلى إقامة معسكره قرب «قلعة مديانوم» [47] (Castellum Medianum)، حيث حاول ربح سكانها لكن دون جدوى.

عاد فيرموس إلى قبيلة إيزافلانس، أثناء وجود ثيودوز في برج مجانة، وهو ما دفع هذا الأخير إلى محاولة غزو أراضيهم، حيث دارت معركة كبيرة كان النصر فيها حليف فيرموس، وعندما حاول ثيودوز التراجع تعرض أيضا لضربات قبيلة يزالنس، التي كانت قد تعهدت بتقديم العون للرومان، مما اضطر ثيودوز إلى الإنسحاب نحو سطيف [48].

عاد ثيودور إلى سطيف، بعد أن اجتاز موريطانيا القيصرية لكن دون أن يحقق نتيجة حاسمة، إذ استمرت الحرب، واستمر إرتباط المور الراسخ بفيرموس [49]، وهو الإرتباط الذي كان كافيا لاستمرار الثورة وهو ما يخشاه ثيودوز الذي لجأ إلى سلاح الخيانة بعد عودته لمحاربة قبيلة إيزافلانس، إذ تمكن من إقناع أمير هذه القبيلة إقمازن ((Igmazen)) بضرورة التخلي عن فيرموس، فقاد إقمازن قبيلته إلى معارك خاسرة كما ينص على ذلك الإتفاق، تفطن فيرموس إلى اللعبة، بعد فوات الأوان مما دفع به إلى الإنتحار، حتى لا يقع في يد الأعداء [50].

تلك هي نهاية فيرموس، الذي قاد القبائل الإفريقية في حرب دامت أربع سنوات، لم يتمكن خلالها الرومان من دحره في ميدان المعركة، فلجأوا كعادتهم إلى سلاح الخيانة الذي فعل ما عجز السلاح عن فعله.

الجزائر في 12 / 9/1989

الهوامش:

(1) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 2-55

(2) ومما يزيد في هذه الصعوبة، تعلق الأمر بوضع خريطة.

(3) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 2-3

(4) Cagnat (E.), Armée Romaine d'Afrique, P. 78.

(5) Cf. Dom. H. Leclercq, l'Afrique chretienne, P. 372.

(6) هذا الإتحاد بين فيرموس والدوناتيين يكشف عنه خاصة القديس أغسطين في بعض نصوصه، أنظر خاصة: Epist, LXXXVII, Contrá lih petiliani, ii, 83, in parmeniani, 1–10

(7) Cf. Winkler, Precis d'histoire des campagnes d'Afrique de Theodose contre Firmus (372- 375), in R. Tunisienne, t. 15, 1908; P. 137.

(8) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 3; 48-49; Zosime, IV, 16,

(9) Orose (Paul), Histoire, VII, 33, 5

(10) Symnaque, Epist, I 56.

(11) August, Contra epist. Parmenioni, I. 10, 16 et II, 17, contia Litteras peliliani, II, 83, 184.

(12) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX.

(13) Code Theodose, VIII, 7. 12, 13.

(14) Cf. Cagnet (R.), Armée romaine d'Afrique, P. 81

(15) Cf. Dom. H. Leclercq, op.cit, P. 374.

(16) Ammien Marcellin, Hist. Rom. XXIX.

(17) رغم إختلاف المؤرخين في تحديد هذا الموقع غير أن كانيا وونكلر يميلان إلى وجودها على طريق لمباز، أنظر كانيا، المرجع السابق، ص 83، وونكلر، ص 138.

(18) هي مدينة «تكلات» على بعد حوالي 15 كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة بجاية الحالية.

(19) يرى بول وبيربريقر أن هذه الشعوب تقطن حاليا مناطق (أفناين وبني وغليس وآيت عامر «المنطقة المتاخمة لمدينة سيدي عيش». حول هذا الموضوع أنظر:

Poulle, Inscriptions de constantino et la province, in rec. de Constantine, t. 13, 1869, P. 706, et Berbrugger, Epoques militaires de la grande-Kabylie, P. 222.

(20) إمسيسن قبيلة تقطن في المثلث المكوّن من وادي الساحل ورافده الشرقي وادي أقبو، أنظر:

Carette, Etudes sur la Kabylie, P. 374, Tissot, Géographie comparée de l'Afrique, I, P. 452.

(21) تقع ممتلكات ««بيترا» في منطقة ملاكو (M'lakou) على بعد 25 كلم إلى الجنوب الغربي من تكلات، وهو ما يدل عليه نقش عثر عليه في هذه المنطقة، ويفهم من النقش أيضاً أنه من انشاء ساماك، أنظر:

Gsell (S.); Inseription d'Ighser amokrane (Kabylie), Comptes rendus de l'Académie des in-seriptiens et belles lettres, 1901, P. 170 et suiv.

(22) موقع لم نتمكن من تحديده، غير أن بول يحاول تحديد ذلك بآثار مسناوا (Mesnaoua) عند بني وغليس، على نهر عمنوا (Amnoua) على قرب قرية بومليل، أنظر: (Poule)

(23) Loc, cit, XXIX

(24) Cf. Cagnat (R.); op.cit p. 84.

(25) Cf. Winkler; op.cit, p. 139.

(26) يتعلق الأمر هنا بالفرقة الرابعة لرماة النبال (Sagittarii) وفرقة فلافيا ويكتريكس أنظر المرجع السابق ص 140. (Flavia victtrix constantina)

(27) مدينة الشلف الحالية، أنظر:

Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, pl. I2 N° 174.

(28) هي جبال الورسنيس وفق رأي لكروا وكات، أنظر

Lacroix (F.) Nunidie et Mauritanie, P. 87, Cat. Essai sur la province romaine de Mauritanie cesarienne, P. 21.

(29) موقع غير معروف ربما على السفح الجنوبي لجبل الورسنيس، ونكلر، المرجع السابق، ص. 140.

(30) أميانوس، المرجع السابق.

(31) يرى كثير من المؤرخين ضرورة تصحيح «تيبازة» من بين هؤلاء: قزال الذي يرى أن تيبازة الزاهرة آنذاك كان بإمكانها أن تكون نقطة إرتكاز للجيش الروماني. أنظر:

Gsell (S.), observations géographiques sur la revolte de firmus in Rec. de Constantine, t. 36, (1903), p.37.

(32) لم يتمكن المؤرخون من تحديد هذا الموقع، ويرى ديلامال، أنه يجب البحث عنه بين تيبازة وأوزيا، وقد لاحظ أن أحد أشقاء فيرموس يحمل إسم مازوكا (Mazuca) وأن هذه الممتلكات تابعة له بينما قال مرسيي أنه داور مازونة (Douar-Mazouna) على الطريق الروماني بين الشلف وسيدي بوراس. ويرى قزال أيضا أن مازوكا هذا كان يسكن (Tigava) وهو ما كان في نظره دليلا كافيا لتكون ممتلكات هذا الأمير في منطقة الشلف. أنظر: Gsell, observations géog. (op.cit), p. 22-23 et 32.

(33) Cf. cagnat (S.), op.cit, p.86.

(34) Ibid, Winkler, op.cit, p.142.

(35) مكان غير محدد، لكن بعض المؤرخين يرون أن فيرموس لجأ إلى قبائل آيت عبان (Abani) أو (Abennae)، التي تسكن السفوح الشمالية الغربية لمسيلة، قرب شط الحضنة. أنظر: ونكلر، المرجع السابق، قزال، ملاحظات جغرافية... ص 40.

(36) يسكنون المنطقة الجبلية إلى الشمال الغربي من المسيلة وفق وجهة نظر نيسو، الجغرافية المقارنة. الجزء الأول، ص 465.

(37) Ammien Marcellin, loc, cit.

(38) Winkler, loc. cit.

(39) يرى ونكلر إمكانية وضع هذه البلدة على ضفاف وادي يسر إلى الشمال من معسكر أوزيا (Castra ausia)

(40) في السبول الجنوبية من جبال جرجرة، أنظر: كانيا، المرجع السابق، ص 88 رقم 2.

(41) تكررت هذه الفكرة أكثر من مرّة عند المؤرخين القدامى، وهو ما يجعلنا نعتبرها من الأغراض التاريخية.

(42) Winkler, loc.cit